الابن الضال

قصة بقلم أندريه جيد

ترجمة الآنسة عايدة سالم

كما أنه لم يكن راضيا عن نفسه ومتعبا من نزواته فقد أخذ الابن الضال بعد غيبته الطويلة يفكر في وجه أبيه من أعماق هذا التجرد من كل شيء الذي كان يبحث عنه ، وفي هذه الغرفة المتسعة بعض الشيء حيث كانت أمه تنحني فوق فراشه ، وفي هذه الحديقة المشبعة بالمياه الجارية ولكنها مسوره ، والتي كان يرغب دائما في الهروب منها ، وفي أخيه الاكبر المدبر والذي لم يكن يحبه قط ، ومع ذلك فقد ظل يحتفظ له بنصيبه من الثروة حتى يعود ، ولم يكن بوسعه أن يبددها أثناء غيابه . ويعترف الابن لنفسه أنه لم يعثر على السعادة كما أنه لم يعرف كيف يستبقي طويلا هذه النشوة التي استعاض بها عن السعادة التي كان يبحث عنها .

وتنهد وهو يفكر ... اذا كان أبي ثائرا في أول الامر فقد يسعده أن يراني مرة ثانية رغم خطيئتي لظنه أني ربما كنت ميتا .

آه ، ان اعود اليه في كثير من التواضع مخفضا جبيني وملطخا بالرماد ، واذا انحنيت أمامه وقلت له « أبي ، لقد أثمت في حقك وفي حق السماء ، ماذا سأفعل» وبيده ساعدني على النهوض وقال لي «ادخل الى المنزل يا بني » ...

عند هذا الحد من التفكير بدأ الابن يسير .

وعند منحنى التل رأى أخيرا الدخان المتصاعد من سطح البيت ، انه الحساء ... ولكن عليه أن ينتظر ظلام الليل ليستر قليلا شقاءه . وسمع من بعيد صوت ابيه وارتجفت ركبتاه وسقط وهو يخفي وجهه بيديه فقد كان خجلا من خجله رغم علمه أنه الابن الشرعي . وشعر بالجوع ولم يكن في ثنية معطفه الرث سوى القليل من الثمار التي كانت تكون كل طعامه وقد جعله هذا شبيها بالخنازير التي كان يرعاها . ورأى استعدادات العشاء ، ولمح أمه تتقدم على عتبة الباب ، ولم يعد بمقدوره الاحتمال وهبط التل مسرعا ... واتجه الى الفناء ، ونبح كلبه الذي لم يعد يعرفه ، وأراد أن يتحدث الى الخدم ولكن هؤلاء ابتعدوا عنه في تشكك ، ثم ذهبوا لابلاغ السيد ... ها هوذا .

لا شك أنه كان في انتظار الابن الضال لانه سرعان ما تعرف عليه ، وانفتحت ذراعاه ... عندئذ جثا الابن أمامه وصاح وهو يخفي جبينه بذراع ورافعا اليد اليمنى في طلب الغفران :

ـ أبي ، أبي ، لقد أثمت في حقك وفي حق السماء ، انني لست جديرا بأن تدعوني اليك ، ولكن دعني على الاقل أعيش في ركن من منزلنا كواحد من خدمك ... كأحطهم شأنا .

فانهضه الاب وضمه اليه :

ـ ليتبارك اليوم الذي عدت فيه الي .

وبكت الفرحة التي فاض بها قلبه ، وابتعد برأسه عن جبين ابنه بعد أن قبله ، ثم استدار الى الخدم :

ـ احضروا أجمل الثياب ، والبسوه حذاء في قدميه ، وخاتما ثمينا في اصبعه . وابحثوا في حظائرنا عن أكثر العجول سمنة واذبحوه ، ثم أقيموا وليمة الفرحة ، فالابن الذي اعتقدت أنه ميت ما زال حيا .

وكما ان الخبر انتشر سريعا ، فقد ركض الابن لانه لم يشأ أن يقول آخر : أماه ، ان الابن الذي بكيناه قد رد الينا . وتصاعدت فرحة الجميع كترنيلة سببت القلق للاخ البكر . ان جلوسه الى المائدة المشتركة يرجع الى أن الاب قد دعاه ودفعه الى حضورها رغما عنه . وكان هو الوحيد الذي بدا مقطب الجبين بين كل المدعوين ، فقد وجهت الدعوة حتى الى أقل الخدم شأنا ... وفكر : لماذا يمنح الضال التائب شرفا أكثر مما يمنح له ، هو الذي لم يخطىء قط ؟ انه ليفضل النظام على الحب . واذا كان قد قبل الظهور في الحفل فهذا يرجع الى أن بمقدوره أن يعيره الفرحة لليلة واحدة كفرصة أخيرة ، كما أن أباه وأمه قد وعداه بعقاب الضال في الغد ، وأنه هو نفسه قد استعد لتوبيخه بشدة .

وتصاعد دخان المشاعل الى السماء وانتهت الوليمة . ورفع الخدم الطعام عن الموائد .

الآن وفي الليل حيث لا يسمع أي صوت ، وحيث ذهب البيت المتعب ، الروح تلو الروح لينام ... ولكن مع ذلك ففي الغرفة التي تلاصق غرفة الخاطىء أعرف طفلا .. أخاه الاصغر .. ظل يبحث طيلة الليل وحتى الفجر عن النوم عبثا .

تأنيب الاب

يا الهي ، انني أجثو أمامك كطفل أغرقت الدموع وجهه .. واذا كنت أتذكر وأسجل الآن ، رموزك الملحة ، فهذا لاني أعلم من كان ابنك الضال ، واني لارى نفسي فيه ، واني اسمع في داخلي احيانا ، واردد خفية هذه الكلمات التي جعلته أنت يصيح بها من أعماق شقائه العظيم : ما أكثر عدد اجراء ابي الذين يملكون الفائض من الخبز ، بينما أموت أنا جوعا .

اني أتخيل عناق الاب ، وان قلبي ليذوب في حرارة مثل هذا الحب . واني لاتخيل حتى الشقاء الماضي ، آه .. اني لاتخيل كل ما يراد ، واني أؤمن بهذا ، وهو أني هذا الذي خفق قلبه عند منحنى التل عندما رأى الاسقف الزرقاء للبيت الذي كان قد هجره . ما الذي انتظره لالقي بنفسي الى المأوى وأدخل ؟ انهم بانتظاري .. واني لارى العجل السمين الذي يعدونه ... توقفوا ... لا تستعدوا سريعا للحفل ـ أيها الابن الضال ، اني أفكر فيك ، حدثني أولا عما قاله لك الاب في الغد ، بعد حفل العودة .

ـ آه ... أباستطاعتي أن أستمع الى صوتك أحيانا من خلال الكلمات التي لقنها لك الابن البكر ؟

ـ ابني ... لماذا تركتني ؟

ـ هل تركتك حقا ؟ ألست في كل مكان يا أبي ؟

اني لم أكف عن حبك أبدا .

ـ لنكف عن الجدال في الترهات . كان عندي بيت يحتويك . وبعد شيد من أجلك . ان اجيالا كدحت حتى تستطيع روحك أن تجد فيه ملاذا لها وبذخا جديرا بها ، ورفاهية وعملا . وأنت ، الوريث ... الابن، لماذا هربت من البيت ؟

ـ لان البيت كان مغلقا علي . البيت ، انه ليس انت يا أبي .

ـ انه أنا الذي شيده ، ومن أجلك .

ـ آه ... انك لم تقل ذلك ، ولكنه أخي الذي قاله . أنت ، لقد بنيت أنت كل الارض والبيت وما عدا البيت .

البيت ... آخرون غيرك بنوه باسمك .. أعلم هـذا ، ولكنهم آخرون غيرك .

ـ ان الانسان في حاجة الى سقف يريح رأسه تحته .

أيها المتكبر ! أتظن أن بمقدورك النوم وسط العاصفة ؟

ـ أيحتاج الامر الى الكثير من الكبرياء ؟ لقد فعله من هم أكثر مني فقـرا .

ـ انهم الفقراء ... ولست أنت بفقير . ما من أحد باستطاعته التنازل عن تراثه . لقد جعلتك غنيا وسط الجميع .

ـ أبي ، أنت تعلم تماما أني حملت أثناء رحيلي كل ما استطعت حمله من ثروتي . فما قيمة تلك الثروة التي ليس بمقدور المرء حملها معـه ؟

ـ كل هذه الثروة المأخوذة .. بددتها .

ـ لقد استبدلت ذهبك باللذات ، وتعاليمك بالنزوات ، وعفتي بالاشعار ، وتقشفي بالرغبات .

ـ أمن أجل هذا أكب أهلك المقتصدون على تقطير هذا القدر من الفضيلة فيك .

ـ حتى احترق بشعلة أروع ، لربما أشعلت في أعماقي حميـة جديـدة .

ـ فكر في هذه الشعلة الصافية التي رآها موسى فوق الدغـل المقدس : كانت تتألق ولكن دون أن تحرق .

ـ لقد عرفت الحب الذي يحرق .

ـ ان الحب الذي أريد أن أعلمك اياه يروي . ما الذي تبقى لك بعد فترة وجيزة أيها الابن الضال ؟

ـ ذكرى هذه اللذات .

ـ والعوز الذي أعقبها ؟

ـ من خلال هذا العوز أحسست أني كنت قريبا منك يا أبي .

ـ أيجب أن تكون معوزا لكي تعود الي .. ؟

ـ لا أدري . لا أدري . انه خلال جفاف الصحراء أحببت عطشـا أكثـر .

ـ ان شفاءك هو الذي جعلك تقدر أكثر قيمة الثروات .

ـ لا ، ليس هذا ... ألا تفهمني يا أبي ؟ ان قلبي الفارغ من كل شيء قد امتلأ بالحب . وبثمن كل ما ملكته اشتريت الحمية .

ـ أكنت اذا سعيدا وأنت بعيد عني ؟

ـ لم أشعر بنفسي بعيدا عنك .

ـ اذن ما الذي دفع بك الى العودة ؟ تكلم ؟

ـ لا أدري .. ربما الكسل ..

ـ الكسل يا ولدي ؟ ! ما هذا ... أليس هو الحب ؟

ـ أبي ، لقد قلته لك ، اني لم أحبك قط أكثر مما أحببتك وأنـا في الصحراء . ولكني كنت متعبا من السعي كل صباح وراء الطعام .. ففي البيت نأكل جيدا على الاقل .

ـ أجل ، فهنا خدم يقومون بالخدمة ، اذن ، فالجوع هو الـذي أعـادك ؟

ـ وربما الجبن والمرض أيضا ... فمع الوقت أضعفني هـذا الغذاء الذي كنت أحصل عليه مصادفة . لقد كنت آكل الثمار التـي تنبت تلقائيا والجراد والعسل . وقد ازدادت مقاساتي لعدم الراحة التي أضرمت في بادىء الامر حميتي . وفي الليل عندما أشعر بالبـرد ... كنت أفكر أن فراشي قد أعد على أكمل وجه عند أبي ، وعندما أصـوم كنت أفكر انه عند أبي كانت وفرة الطعام المقدم تتجاوز دائما جوعي . وارتخت عزيمتي ، ولم أعد أشعر بالشجاعة والقوة الكافية لاستمر في النضال ، ومع ذلك .....

ـ اذن ، فقد بدا لك عجل الامس السمين شهيا .

أرتمى الابن الضال وهو ينتحب والتصق وجهه بالتراب .

ـ أبي ، أبي ، ان مذاق ثمار شجر البلوط العذب ما زال عالقـا بفمي ، ولن يمحو شيء مذاقه .

استطرد الاب وهو ينهضه :

ـ أيها الطفل المسكين ، ربما تحدثت اليك في شيء من القسـوة ، لقد أراد أخوك هذا ، أنه هو الذي يسن القانون هنا . انه هو الـذي أرغمني على القول « لا خلاص لك ، بعيدا عن البيت » ولكن أنصت ... انه أنا الذي شكلتك وما في أعماقك أعرفه . اني أعرف ما الذي دفـع بك الى الطرق . وكنت انتظرك في نهايتها .. واذا ناديتنـي .. كنت هنـا .

ـ أبي ، كان باستطاعتي اذن أن أعثر عليك دون أن أعود ؟

ـ اذا كنت قد أحسست بالضعف ، فقد أحسنت صنعا بعودتك . اذهب الآن ، ادخل الى الغرفة التي أعددتها من أجلك . ولتكتف اليـوم بهذا القدر ، استرح ، وفي الغد بمقدورك أن تتحدث مع أخيك .

تأنيب الاخ البـكر

سعى الطفل الضال الى أخذه بالشك وبدأ بقوله :

ـ يا أخي الكبير اننا قلما نتشابه ، يا أخي اننا لا نتشابه .

وقال الاخ البكر :

ـ انه خطؤك .

ـ ولماذا خطئي ؟

ـ لاني أنا خاضع للنظام ، وكل ما يتنافى مع ذلك ثمره أو بـذره الكبريـاء .

ـ أليس بمقدوري أن أتميز سوى بالاخطاء ؟

ـ لا تدع فضيلة سوى تلك التي قادتك الى النظام ، وكل ما تبقى لا قيمة لـه .

ـ أن هذا التشويه هو ما كنت أخشاه . وأيضا هذا الذي يجيئك من الاب تهمله .

ـ لا .. لا أهمله ... أقلل من قيمته كما قلت .

ـ اني أفهمك جيدا ، لقد قللت من قيمة فضائلي بهذه الطريقة .

ـ وهذا أيضا هو السبب في أني عثرت عليها الآن من جديد .

وهذا ما دفعك الى المبالغة في احساسك بهذه الفضائل .

افهمني جيدا : انه ليس تقليلا من شأنك، ان ما أقصده هو أن أدفع بك الى قمة الحماس حيث يجب على أكثر عناصر جسدك تنوعا وجموحا أن تتلاحم في اتساق ، وحيث يجب على أسوأ ما فيك أن يغذي الافضل، وحيث يجب على الافضل أن يخضع لـ ....

ـ انه الحماس أيضا هو ما كنت أبحث عنه ، والذي عثرت عليه في الصحراء ، وربما لم يختلف كثيرا عما تقدمه لي .

ـ الحقيقة ، لقد أردت أن أفرضه عليك .

ـ ان أبانا لم يتحدث بمثل هذه القسوة .

ـ اني أعرف ما قاله لك الاب . انه غير محدد ، لانه لم يعد يعبر عن نفسه في كثير من الوضوح بحيث اننا نجعله يقول ما نريده . ولكن انا كنت أعرف مراده ، والى جانب الخدم فاني أظل الوحيد الذي يتحدث عن لسان أبي ، والذي يرغب في فهم الاب عليه أن يستمع الي .

ـ لقد فهمته في كثير من السهولة بدونك .

ـ هذا ما توهمته ، ولكنك اسأت الفهم . ليست هناك طرق متعددة لفهم الاب ، وليست هناك طرق متعددة للانصات اليه ، وليست هناك طرق متعددة لحبه ، حتى لكي نتحد في حبه .

ـ في بيته .

ـ هذا الحب يقود اليه ، أنت تراه جيدا ما دمت قد عدت . والآن، قل لي : ما الذي دفعك الى الرحيل ؟

ـ لاني امتلأت احساسا بأن البيت ليس هو كل العالم . وأنا نفسي لم أكن كلية في ذلك الذي أردتم أنتم أن أفعله . ولقد تخيلت بالرغم مني زرعا آخر ، وأراضي أخرى وطرقا لتندفع فيها ، طرقا ليست محطمة ، وتخيلت في عماقي الكائن الجديد الذي أحسست به يتحفز... وهربت .

ـ فكر فيما كان قد يحدث لو أني هجرت بيت الاب . ان الخدم والاصوص كانوا يسلبون كل ثروتنا .

ـ ما كنت لابالي عندئذ بذلك ، ما دمت قد لمحت ثروات أخرى .. كانت كبرياؤك تبالغ في تصورها ، ان عدم الخضوع للنظام قد وقع يا أخي . من أي خليط ينبع الانسان .. ؟ ستتعلم هذا اذا كنت لا تزال حتى الآن تجهله .. لقد تولد جزء منه وظل الجزء الآخر ملتصقا بهذا الخليط ، وانه ليسقط بكل ثقله اللامدرك في اللحظة التي لا تعود تعمل الروح فيها على الارتفاع به . لا تدفع ثمن معرفته : ان العناصر الشديدة التناسق التي تشكك لا تنتظر سوى الرضى وسوى الوهن من جانبك لكي تعود بك الى الفوضى ... ولكن الذي ان تعلمه أبدا هو تلك الفترة الطويلة التي تلزم الانسان لكي تنضج الانسان .. ما دام قد حقق نموذجه فلتتمسك به ... فقد قالت الروح لملاك الكنيسة ((تمسك بما تملكه)) ثم أضافت ((حتى لا يسلب أحدهم تاجك)) . ((ما تملكه)) انه تاجك ، انها هذه السلطة على الآخرين وعلى نفسك . تاجك ... ان المغتصب يتربص به ، انه في كل مكان ، انه يحوم حولك وفي داخلك . تمسك به يا أخي ، تمسك به .

ـ لقد فككت قبضتي منذ زمن بعيد جدا ، ولم يعد بمقدوري أن أغلق كفي مرة أخرى على ممتلكاتي .

ـ بالامكان ، بالامكان وسأعاونك . لقد حافظت على هذه الثروة أثناء غيابك .

ـ وبعد ، ان حديث ((الروح)) هذا قد عرفته ، انك لم تذكره بأكمله .

ـ وقد استطردت الروح عندئذ : ((ان هذا الذي سينتصر سأجعل منه دعامة في معبد ربي ، ولن يخرج منه أبدا .

ـ ((ولن يخرج منه أبدا)) ان هذا بالتحديد هو ما يخيفني .

ـ اذا كان هذا من أجل سعادته .

ـ أوه ... اني أفهم جيدا . ولكن في هذا المعبد ، لقد كنت فيه ....

ـ لقد ضرك الخروج منه ، ما دمت قد رغبت في دخوله .

ـ اني أعرف ، اني أعرف . وها أنذا قد عدت ، واني أعترف به .

ـ أي خير باستطاعتك البحث عنه ولا تجده متوفرا هنا ؟

أو الافضل : انه هنا فقط توجد ثرواتك .

ـ اني أعلم أنك احتفظت لي بثروات .

ـ أجل ... ما لم تبدده من ثرواتك ، أعني هذا الجزء المشترك بيننا ، بيننا جميعا : الممتلكات العقارية .

ـ اذن ... ألا أمتلك شيئا خاصا ؟

ـ أجل ، هذا الجزء الخاص من الهبات التي ربما يرضى الاب بمنحها لك .

ـ ان هذا فقط هو الذي أتمسك به ، واني لحريص على ألا أملك سوى هذا .

ـ أيها المتكبر ! انك لن تستشار . والواقع أن هذا الجزء يجلب الحظ ، اني أنصحك بالاحرى أن تتنازل عنه ، هذا الجزء من الهبات الشخصية ، انه هو الذي تسبب في ضياعك عندئذ ، انها تلك الثروات التي بددتها سريعا .

ـ ما كان بمقدوري أخذ الممتلكات الاخرى معي .

ـ ولذلك ستجدها كاملة أيضا . هذا يكفي اليوم ، ادخل الى سكينة البيت .

ـ ان هذا لحسن لاني تعب .

ـ في هذه الحالة ليتبارك تعبك ... والآن اذهب للنوم . وفي الغد ستتحدث معك أمك .

الام

أيها الابن الضال الذي ما زالت روحك يثيرها في كل حين حديث أخيه . دع الان قلبك يتحدث . لكم تستعذب الجلوس عند قدمي أمك الجالسة ، وجبينك مدفون بين ركبتيها ، وأن تحس بيدها الملاطفة تحني عنقك المتمرد .

ـ لماذا تركتني طويلا ؟

وكما أنك لا تجيب بشيء سوى الدموع ....

ـ لماذا تبكي الآن يا بني ؟ لقد رددت الي ... وخلال انتظاري لك سكبت كل دموعي .

ـ هل ظللت تنتظرينني ؟

ـ انني لم أكف أبدا عن تمنيك . وكل مساء قبل أن أنام كنت أفكر : اذا عاد هذه الليلة ، هل سيعرف كيف يفتح الباب ؟ وكنت أبقى طويلا بلا نوم . وكل صباح قبل أن أستيقظ تماما كنت أفكر : ألن يعود اليوم ... ثم أصلي ، لقد صليت كثيرا الى درجة أنه كان من الضروري أن تعود .

ـ ان صلواتك قد سارعت في عودتي .

ـ لا تسخر يا طفلي .

ـ أوه يا أمي ، اني أعود اليك ضارعا . أنظري كيف أضع جبيني دون قلبك ... ما من فكرة واحدة من أفكار الامس الا وأصبحت اليوم عديمة الجدوى . اني الى جوارك أكاد لا أفهم لماذا تركت البيت .

ـ انك لن ترحل أبدا .

ـ ما عاد باستطاعتي الرحيل .

ـ ما الذي جذبك اذن الى الخارج .

ـ ما عدت أرغب في التفكير بذلك : لا شيء .... أنا نفسي .

ـ أكنت تفكر أنك ستكون سعيدا بعيدا عنا ؟

ـ ما كنت أبحث عن السعادة

ـ ما الذي كنت تبحث عنه ؟

ـ كنت أبحث .... لأعرف من أنا .. ؟

ـ أوه يا ابن اهلك ... ايها الاخ وسط اخوتك .

ـ اني لم أكن أشبه اخوتي . لنكف عن التحدث عن هذا الامر.. ها أنذا قد عدت .

ـ بلى ، فلنتحدث عنه : لا تعتقد أن اخوتك يختلفون كثيرا عنك .

ـ ان همي الوحيد من الآن فصاعدا هو أن أشبهكم جميعا .

ـ أنت تقول هذا وكأنك تستسلم .

ـ ما من شيء أكثر ارهاقا من تحقيق ما يميز المرء عن الآخرين . هذه الرحلة ... في النهاية قد أسأمتني .

ـ ها أنت ذا قد شخت حقا .

ـ لقد تعذبت .

ـ يا طفلي المسكين ، لا شك أن فراشك لم يكن يعد في كل الامسيات ، ولا كانت المائدة تعد لكل وجباتك ؟

ـ لقد كنت آكل ما أجده ، ولم يكن في أغلب الاحيان سوى فاكهة فجة أو عفنة ، وكان جوعي يدفعني الى التهامها .

ـ ألم تتعذب على الاقل من شيء آخر سوى الجوع ؟

ـ وشمس الظهيرة ، وريح قلب الليل الباردة ، ورجال الصحراء المتحركة ، والاشواك التي أدمت قدمي ، ما من شيء من هذا أوقعني ولكن ـ اني لم أقل هذا لأخي ـ لقد اضطررت الى أن أخدم .

ـ لماذا أخفيت هذا ؟

ـ سادة ظالمين أذلوا جسدي وحطموا كبريائي ، وكانوا يعطونني ما يسد رمقي بالكاد ، عندئذ فكرت :

آه ، ان الامر سيان ، هنا أو هناك . وفي الحلم كنت أرى البيت ، وعدت ... ودخلت .

وأحنى الابن الضال من جديد الجبين الذي كانت أمه تداعبه في رقة .

ـ ما الذي ستفعله الآن ؟

ـ لقد قلته لك : أن أقصر همي على أن أصبح شبيها لاخي الكبير ، وأن أرعى ممتلكاتنا ، وأن اتخذ زوجة مثله ....

ـ لا شك أنك تفكر في امرأة ما وأنت تقول هذا .

ـ أوه ... لا أهمية لمن ستكون المفضلة ما دمت أنت التي ستختارينها . افعلي كما فعلت من أجل أخي .

ـ كنت أريد اختيار ما يمليه عليك قلبك .

ـ ما الاهمية ، لقد اختار قلبي . اني أتخلى عن كبرياء حملتني بعيدا عنك . أرشدي اختياري ....

أقول لك لقد خضعت ، وسأخضع حتى أولادي ، وعندئذ لن تبدو لي تجربتي لا مجدية الى هذا الحد .

ـ أنصت ، هناك طفل في الوقت الحاضر بمقدورك أن ترعاه .

ـ ما الذي تريدين قوله ، وعمن تتحدثين ؟

ـ عن شقيقك الاصغر ، الذي لم يكن قد بلغ العاشرة عندما رحلت، والذي لم تتعرف عليه الا في صعوبة ، والذي مع ذلك ....

ـ أكملي يا أمي ، ما الذي يقلقك الآن ؟

ـ الذي كان بمقدورك أن ترى فيه نفسك ، فهو يشبه تماما ما كنته وأنت راحل .

ـ شبيهـا لـي ؟

ـ شبيها بما كنته أقول لك ، وليس أيضا للاسف بما أصبحته .

ـ سيصبحه .

ـ بما يجب دفعه أيضا الى أن يصبحه . تحدث معه . سينصت اليك بدون شك ، أنت أيها الضال ... قل له أي مرارة سيصادفها في الطريق ، وترفق به ....

ـ ولكن ما الذي يخيفك اذن بشأن أخي ؟ انه ببساطة مجرد تشابه في الملامح .

ـ لا ، لا .. ان التشابه بينكما أكثر عمقا . اني قلقة الآن عليه من الشيء الذي لم يكن يثير أدنى قلقي عليك أنت . انه يقرأ كثيرا ، ولا يفضل دائما الكتب الجيدة .

ـ أليس هناك سوى ذلك ؟

ـ انه كثيرا ما يتسلل الى أكثر أجزاء الحديقة ارتفاعا حيث بالامكان رؤية البلاد ، أنت تعلم .... فوق الاسوار ....

ـ اني أتذكر ... أهذا كل شيء ؟

ـ انه يبقى الى جوارنا أقل بكثير مما يبقى بالمزرعة .

ـ آه ! ماذا يصنع فيها ؟

ـ لا شيء سيء . ولكنه لا يخالط الزراع بل الخدم الاكثر انحطاطا والغرباء . ان له واحدا على الاخص ، جاء من بعيد ، وهو يقص عليه الاقاصيص .

ـ آه ... راعي الخنازير .

ـ أجل ، أكنت تعرفه ؟ ان أخاك يتبعه كل مساء الى حظيرة الخنازير ليستمع اليه ، ولا يعود الا من أجل تناول طعام العشاء ، بدون شهية وملاذ . تفوح منه رائحة كريهة . والنصائح لم تأت بنتيجة ، كما أنه تصلب تحت الضغط . وأحيانا في الصباح ... في الفجر ، وقبل أن يستيقظ أي واحد منا ، كان يسرع لاصطحاب راعي الخنازير هذا الى الباب عندما يخرج ليرعى قطيعه .

ـ وهو يعرف أنه لا يجب أن يخرج .

ـ لقد كنت تعرف هذا أيضا ، في يوم سيهرب مني ، اني متأكدة من هذا ، سيرحل يوما ....

ـ لا ، سأتحدث معه يا أمي : لا تخافي .

ـ اني أعلم أنه سيستمع منك الى كثير من الاشياء .

هل رأيت كيف كان ينظر اليك أمس الاول ؟ وأي سحر كان يحيط بأسمالك... ثم الرداء الارجواني الذي ألبسك اياه الاب . ولقد خشيت أن يربط بينهما في ذهنه ، وأن ما يجذبه الآن هو الاسمال . ولكن هذه الفكرة تبدو لي الآن خرقاء ، لانه في النهاية ، اذا كنت أنت يا طفلي استطعت أن تتنبأ بكل هذا الشقاء ، لما كنت تركتنا ، أليس كذلك ؟

ـ لم أعد أعرف كيف استطعت أن أتركك ، أنت يا أمي .

ـ حسنا ، كل هذا ، قله له .

ـ كل هذا سأقوله له مساء الغد . والآن قبلي جبيني كما كنت تفعلين وأنا طفل صغير ، وأن تنظري الي وأنا أستغرق في النعاس . اني أرغب في النوم .

ـ اذهب لتنام . اني ذاهبة لاصلي من أجلكم جميعا .

صدرت الطبعة الخامسة منقحة
من الكتاب العالمي
روح الدين الاسلامي
وضع خصيصا ليعرف شعوب العالم عظمة الإسلام
باشراف هيئة من علماء الازهر
يحتوي على :
عرض وتحليل لأصول الاسلام وآدابه
تحت ضوء العلم والفلسفة
• الأدلة العلمية على أن القرآن من عند الله
• دحض أخطر الشبهات عن الاسلام
تحليل رائع لـ ١٠٧٠ آية قرآنية
تأليف : عفيف عبد الفتاح طباره
توزيع : الشركة العربية للتوزيع
لبنان - بيروت - ص.ب ٤٢٢٨
اعتبر مرجعا اساسيا في كلية الشريعة في جامعة دمشق

حوار مع الاخ الاصغـر

في الغرفة التي تلاصق غرفة الضال ، وهي غرفة قليلة الاتساع ، عارية الجدران . تقدم الضال وهو يحمل مصباحا في يده من الفراش الذي يرقد فوقه أخاه الاصغر وقد استدار بوجهه ناحية الحائط . وبدأ يتحدث بصوت خافت حتى لا يقض مضجعه .

ـ أريد أن أتحدث اليك يا أخي .

ـ وما الذي يمنعك ؟

ـ لقد ظننتك نائمـا .

ـ ان الانسان ليس في حاجة للنوم لكي يحلم .

ـ كنت تحلم ، بأي شيء اذن ؟

ـ وما شأنك ، اذا كنت أنا نفسي الآن لا أفهم أحلامي ، انه لست أنت فيما أعتقد الذي سيفسرها لي .

ـ اذن أهي بالغة الحساسية ؟ اذا قصصتها علي ، سأحاول .

ـ وأحلامك ، هل تختارها ؟ ان أحلامي هي ما يريدونه ، وهي أكثر تحررا مني .... ما الذي جئت تفعله هنا ؟ لماذا تقلق نومي .

ـ أنت لم تكن نائما ، وقد جئت لأحدثك في هدوء .

ـ ماذا عندك لتقوله لي ؟

ـ لا شيء ، اذا أخذت الامور بهذه الكيفية .

ـ اذن ، وداعـا .

اتجه الضال الى الباب ، ولكنه وضع فوق الارض المصباح الـذي لا يكاد يضيء الغرفة الا قليلا ، ثم عاد وجلس على حافة الفراش ، وفي الظلام داعب طويلا جبين الطفل المبتعد .

ـ انك تجيبني بقسوة أكثر مما فعلت مع أخيك ، ومع ذلك فقـد احتججت عليه أيضا .

واعتدل الطفل الجامح فجأة .

ـ قل ، أهو الاخ الذي أرسلك ؟

ـ لا يا صغيري ، ليس هو ولكنها أمنا .

ـ آه ، انك ما كنت لتجيء بمحض ارادتك .

ـ اني أجيء مع ذلك كصديق .

وبنصف انتصابة فوق فراشة حدق في الضال .

ـ كيف يمكن لواحد من أهلي أن يكون صديقا لي .

ـ انك تخطيء في فهم أخينا ..

ـ لا تحدثني عنه ، اني أمقته ، ان قلبي قد عيل صبره منـه . انه هو السبب في ردي عليك بقسوة .

ـ كيف ؟

ـ ألم تفهم ؟

ـ قل الآن ...

وهدهد أخاه ، عندئذ استكان الفتى المراهق :

ـ مساء عودتك ، لم أستطع النوم . ولقد فكرت طيلة الليل : ان لي أخا آخر ، وأنا لا أعلم ! ! ... من أجل هذا كان قلبي يخفق بعنف عندما رأيتك مجللا بالمجد في فناء البيت .

ـ واأسفاه ، لقد كنت مغطى بالاسمال .

ـ أجل ، لقد رأيتك ، ولكنك كنت عندئذ مجيدا . ثم رأيت ما فعله أبونا ... لقد وضع في اصبعك خاتما ، خاتما لم يملك مثله أخونا . لم أشأ أن أسأل أحدا عنك ، لقد علمت فقط أنك عائد من بعيد ، ونظرتك ، على المائـدة ....

ـ أكنت في الحفل ؟

ـ أوه ... اني أعلم تماما أنك لم ترني ، طيلة الحفل كنت تنظـر الى بعيد دون أن ترى شيئا . وكما أنك مساء اليوم التالي تحدثت مع الاب .. لا بأس ، ولكن مساء اليوم الثالث ...

ـ أكمل .

ـ آه ... ألم يكن بمقدورك مع ذلك أن تقول لي كلمة حب .

ـ اذن فقد كنت تنتظرني ؟

ـ أتظن اني كنت أبغض أخانا الى هذا الحد اذا كنت لم تتحدث معه بشدة هذا المساء ؟ ما الذي كان بمقدورك أن تقوله له ؟ أنت تعلم تماما أنك اذا كنت تشبهني فلن يكون بينكما شيء مشترك .

ـ لقد أخطأت أخطاء خطيرة في حقه .

ـ أهذا ممكن ؟ !

ـ على الاقل اخطأت في حق أمنا وأبينا . انت تعلم أنني كنت قد هربت من البيت .

ـ أجل ، أعلم . منذ زمن بعيد ، أليس كذلك ؟

ـ عندما كنت أماثلك في السن تقريبا .

ـ آه ... وهذا ما تسميه بأخطائك ؟

ـ أجل ، هنا كان خطئي .... خطيئتي .

ـ عندما رحلت ، هل أحسست أنك تخطيء ؟

ـ لا ، لقد أحسست في داخلي بضرورة الرحيل .

ـ ما الذي حدث اذن منذ ذلك الوقت لتتحول حقيقتك عندئذ الى خطـأ ؟

ـ لقد تعذبت .

ـ وهذا هو الذي دفعك الى القول : لقد كنت مخطئا ؟

ـ لا ، ليس بالتحديد : ان هذا هو الذي جعلني أفكر .

ـ ولكنك لم تفكر من قبل ؟

ـ أجل ، ولكن عقلي الواهن قد ترك نفسه يخضع لرغباتي .

ـ كما فعل بك العذاب فيما بعد . حتى أنك اليوم عدت ..... مهزومـا .

ـ لا ، ليس بالتحديد ، خاضعـا .

ـ اذن فقد تخليت عن أن تكون هذا الذي أردت أن تكونه .

ـ الذي اقنعني كبريائي بأن أكونه .

ظل الفتى صامتا لحظة ثم فجأة صرخ وانتحب :

ـ يا أخي ، اني هذا الذي كنته عندما رحلت . أوه ، قل : ألـم تلتق في الطريق بشيء سوى الخيبة ؟ كل ما تخيلته بالخارج ، ومـا يختلف عن هنا ، لم يكن سوى سرابا ؟ وكل ما أحسسته جديدا فـي داخلي لم يكن سوى جنونا ؟

قل : ما هو الشيء المقنط الذي التقيت به في الطريق ؟

أوه .... ما الذي جعلك تعود ؟ !

ـ الحرية التي كنت أبحث عنها ، فقدتها ، كان علي أن أخـدم وأصبحت سجينـا .

ـ اني سجينا هنا .

ـ أجل ، ولكن أن تخدم أسيادا ظالمين ، ان الذين تخدمهم هنا هم أهلـك .

ـ آه ... سيان عندي ، ألا يملك الانسان هذه الحرية ، حريـة اختيار عبوديته على الاقل ؟

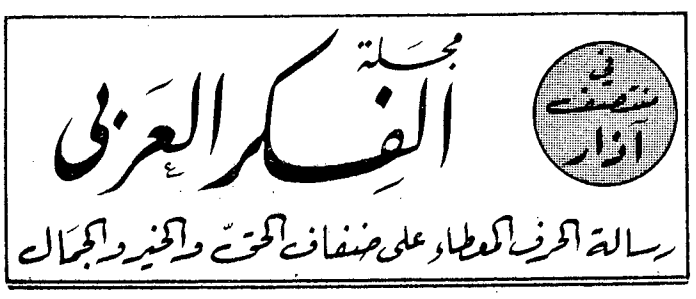

ـ هذا ما أملته . بعيدا جدا حيث حملتني قدماي ، سرت جادا وراء رغبتي مثل « سايول » وهو يجد وراء حمير ه ... ولكن حيث تنتظره مملكة .... انه الشقاء هو الذي وجدته . ومع ذلك ....

ـ ألم تضل الطريق ؟

ـ لقد سرت أمامي .

ـ أمتأكد أنت من ذلك ؟ ومع ذلك فهنالك ممالك أخرى أيضا ، وأراض بلا ملك لتكتشف .

ـ من الذي قاله لك ؟

ـ اني أعلمه ، اني أحسه ، ويبدو لي الآن أني أسيطر عليها .

ـ أيها المتكبر .

ـ آه ، آه .... هذا هو ما قاله لك أخونا . لماذا ترده لي أنت الآن ؟ ما الذي جعلك لا تتمسك بهذه الكبرياء ! انك ما كنت لتعود....

ـ ولما كان باستطاعتي اذن أن ألتقي بك .

ـ أجل ، أجل ، كنا سنلتقي هناك لاسري عنك ، وكنت ستعترف بي كأخ لك . حتى انه يبدو لي الآن أيضا أنه لكي أعثر عليك ثانية علي أن أرحل .

ـ عليك أن ترحل ؟ !

ـ ألم تفهمه ؟ ! ألا تحثني أنت بالذات على الرحيل ؟

ـ اني أريد أن أوفر عليك مشقة العودة بتوفيري عليك مشقة الرحيل .

ـ لا ، لا ، لا تقل هذا ، لا ليس هذا ما ترغب في قوله . أنت أيضا ألم تكن كالفاتح وأنت ترحل .

ـ وهذا ما جعل العبودية تبدو لي أكثر قسوة .

ـ اذن لماذا استسلمت ، أكنت تعبا الى هذا الحد ؟

ـ لا ، ليس الى هذا الحد ، ولكني شككت .

ـ ما الذي تريد قوله ؟

ـ شككت في كل شيء ، في نفسي ، ولقد أردت أن أتوقف ، وأن أرتبط بمكان ما ، فالراحة التي وعدني بها هذا السيد قد فتنتني .... أجل ، اني أحسه تماما الآن ، لقد أخطأت .

وأحنى الضال رأسه ، ودفن نظرته بين كفيه .

ـ لكن وبعد ؟

ـ لقد سرت طويلا في الارض الواسعة التي لا تقهر .

ـ الصحراء ؟

ـ انها لم تكن دائما صحراء .

ـ عن أي شيء كنت تبحث فيها ؟

ـ اني لم أعرف ذلك أبدا ، أنا نفسي .

ـ انهض عن فراشي ، انظر الى المائدة ، الى محرابي .. هناك قريبا من هذا الكتاب الممزق .

ـ اني أرى رمانة مكسورة .

ـ ان راعي الخنازير هو الذي احضرها لي مساء أمس ، بعد غياب دام ثلاثة أيام .

ـ أجل ، انها رمانة فجة .

ـ اني أعرف ، ان لذوعتها تكاد تكون مخيفة ، واني لأحس مع ذلك ، اني اذا كنت قد بلغت درجة كبيرة من العطش لقضمتها .

ـ آه ... بمقدوري الآن اذن أن أقوله لك : ان هذا العطش هو ما كنت أبحث عنه في الصحراء .

ـ العطش .... بمقدور هذه الثمرة الفجة فقط أن ترويه ...

ـ لا ، ولكنها تدفع الى حب هذا العطش .

ـ أتعلم من أين تقطف ؟

ـ انه بستان صغير مهمل ، ان الانسان يصل اليه قبيل المساء . ما من حائط يفصله اطلاقا عن الصحراء . وهناك ينساب جدول ، وتتدلى من الاغصان بعض الثمار نصف الناضجة .

ـ أي ثمار ؟

ـ مثل تلك التي توجد في حديقتنا ، ولكنها تنبت تلقائيا . والجو هناك شديد الحرارة طيلة اليوم .

ـ أنصت ، أتعلم لماذا كنت أنتظر هذه الامسية ؟ لانه قبل أن ينتهي الليل سأرحل . هذه الليلة ، هذه الليلة ، عندما تشحب السماء .... لقد ثقلت حزامي ، واحتفظت هذه الليلة بنعلي .

ـ ماذا ! ستفعل ما لم أستطع أن أفعله ؟ !

ـ لقد مهدت لي الطريق ، ان التفكير فيك يمدني بالقوة .

ـ على أن أعجب بك ، وعلى العكس ، عليك أنت أن تنساني . ما الذي ستأخذه معك ؟

ـ اني أعلم جيدا أني كأخ أصغر لا نصيب لي في الميراث . اني أرحل خاوي الوفاض .

ـ هذا أفضل .

ـ الى أي شيء تتطلع عبر النافذة ؟

ـ الى الحديقة حيث يرقد الموتى من أهلنا .

ـ يا أخي .... (وأحاط الطفل الذي نهض من الفراش عنق الضال بذراعه التي تماثل في ليونتها ليونة صوته) ارحل معي .

ـ دعني ، دعني ، اني أبقى لاعزي أمنا . ستصبح بدوني أكثر بطولة . لقد حان الوقت الآن . ان السماء تشحب . ارحل بدون ضجة. هيا ، قبلني ، يا أخي الصغير .. انك تحمل معك كل أمنياتي. كن قويا ، انسنا ، انسني .بمقدورك ألا تعود ... اهبط في هدوء . اني أحمل المصباح ....

ـ آه ... امسك بيدي حتى الباب .

ـ انتبه الى الدرج .

ترجمة عايدة سالم

صدر حديثا

في طبعة جديدة

وجدتها

وحدي مع الايام

للشاعرة

فدوى طوقان

ثمن النسخة من كل ديوان ٣ ليرات لبنانية